الوسطيّـــــــــــــة في الإسلام

الأستاذ : محمـــــــــــد علي ناصف
كلية الآداب والعلوم - زليتن.

الحمد لله علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وبعد:

فإنّ تصرفات الإنسان في الحياة ينبغي أن تكون بعيدة عن الإفراط والتفريط، متّسمة بالاعتدال، من هنا كان هذا البحث محاولةً لتسليط الضوء على هذا الموضوع، وهو الوسطيّة في الإسلام، فوسط من باب وعد، والوسط من كلّ شيء أعدله، وشيء وسط بين الجيّد والرديء[1]

وقد ذكر الله تعالى في كتابه:{وكذلك جعلناكم أمّة وسطا}[2] أي عدلا[3]. والوسط العدل، وأصل هذا أنّ أحمد الأشياء أوسطها، وجعل ذلك لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل والأوساط محميّة.[4]

وفي التنزيل قال تعالى:{قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون}[5]، أي أعدلهم، وخيرهم.[6]

فالوسطيّة تعني التوسّط بين الطرفين كوسط المكان، ووسط المعيشة، وقد جاء في السنّة:"خير الأمور أوساطها".[7]

وقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى منزلة الوسطيّة، وأنّها من أفضل المنازل، من ذلك قوله تعالى وهو يصف أصناف النّاس في قبولهم واتّباعهم الشرائع:{ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات

---

1) الرازي/ محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 720، مادة (و س ط).

2) البقرة: 142.

3) القرطبي/ الجامع لأحكام القرآن، (153/2).

4) النسفي/ مدارك التنزيل، (79/1).

5) القلم: 28..

6) القرطبي/ الجامع لأحكام القرآن، (153/2)..

7) ذكره الديلمي في مسند الفردوس، ص 120، مرسلا عن ابن عباس.

بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير}[1] والمقتصد: المتوسّط. وعندما ذكر الإنفاق ذكر الوسطيّة، وأنّها القوام، فقال:{والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما}.[2] والآية في سياقها تعدد صفات عباد الرحمن الذين اصطفاهم واختارهم وهداهم إلى طاعته، فكانوا على أقوم طريق.

والقوام العدل بين الشيئين، وهما الغلو والتقصير، وقد ورد عن عبد الملك بن مروان أنّه سأل عمر بن عبد العزيز عن نفقته حين زوّجه ابنته، فقال: الحسنة بين السيِّئتين، فعرف عبد الملك أنّه أراد معنى هذه الآية.[3]

وفي آية أخرى نهى الله جلّ جلاله نبيّه، ثمّ الأمّة من بعده عن الإسراف والتقتير والتزام الوسطية، فقال تعالى:{ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوما محسورا}[4] أي تقعد ملوما عند الله؛ لأنّ المسرف غير مرضي عنه عند الله وعند الناس، محسورا أي منقطعا بك لا شيء عندك لضياع أموالك[5].

أمّا الشعراء، فإنّهم يختارون الوسطية أيضا، ويمدحونها، ويحثون غيرهم على نهجها، يقول زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم ❖❖ إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم.[6]

وقال آخر: أنتم أوسط حيٍ علموا ❖❖ بصغير الأمر أو إحدى الكبر.

وقال آخر: لا تذهبنّ في الأمور فرطا ❖❖ لا تسألنّ إن سألت شططا.

وكن من الناس جميعا وسطا.[7]

والناس بصفة عامة يختارون الوسطية؛ لأنّهم يعرفون بتجاربهم أنّ الوسط دائما يكون مجانبا للغلو والتقصير، وأهل البادية يدركون أنّ وسط الوادي هو خير موضع فيه، وأكثره كلأً وخصوبة.

---

1) فاطر: 32.

2) الفرقان: 67.

3) النسفي/ مدارك التنزيل، (175/3).

4) الإسراء: 29.

5) النسفي/ مدارك التنزيل، (313/2).

6) الجاحظ/ البيان والتبيين، (280/1).

7) ابن عبد البرّ/ بهجة المجالس وأنس المُجالِس، (84/1).

وكان عليّ رضي الله عنه يقول:"عليكم بالنمط الأوسط فإليه ينزل العالي ويرتفع النازل".[1] وشريعة الإسلام الخالدة دعت دائما إلى ما يوافق طبيعة الإنسان؛ لأنّها جاءت لخير البشرية، فهي نور من نور الله، والله يهدي لنوره من يشاء. وهي قد رسمت منهجا محمودا للمؤمنين، فهم لم يغلوا غلوّ النصارى في أنبيائهم حين عبدوهم، وجعلوهم لله نداً، ولا قصّروا تقصير اليهود في أنبيائهم، حيث قتلوهم، أو وصفوهم بأوصاف خسيسة كوصفهم مريم بالزنا، وابنها بأنّه ابن زنا.

وتتجلّى الوسطيّة في كثير من أمور الإسلام، ففي العقيدة تتجلّى الوسطية والاعتدال بين الخالق والمخلوق، فالخالق هو الله الواحد الأحد، ولا آلهة أخرى على الإطلاق، والمخلوقون هم على قدم المساواة عباد الله، وليس هناك وسطاء بين الله وعباده.[2] قال تعالى:{وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم}[3]، وقال أيضا:{وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الداع الداع إذا دعان}[4]

وفي طلب الرزق تتجلّى الوسطيّة كذلك، فلا ينهمك الإنسان في جمع المال من حلال أو حرام، بل يلتزم طلب الحلال، ويتصدّق منه وينفق، ويصل رحمه؛ لأنّه يعرف بأنّه مستخلف في هذا المال، قال تعالى:{آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير}[5]، ويقول:{وابتغ ممّا آتاك الله الدّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا}.[6]

والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول:"ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، ولكن من أخذ منهما جميعا"[7]. والحياة العمليّة للنبيّ وأصحابه والسلف الصالح تؤيد ذلك.

---

1) ابن عبد ربّه/ العقد الفريد، (209/1).

2) الزحيلي/ وهبة، موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر، (469/6).

3) غافر: 60.

4) البقر: 185.

5) الحديد: 7.

6) القصص: 77.

7) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني/ أخبار أصبهان، (495/8).

كذلك من وسطيّـــــــــة الإسلام اليسر، وعدم الحرج في التكاليف، يقول تعالى:{يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر}[1]، ويقول:{وما جعل عليكم في الدين من حرج}.[2]

وفي الصحيح:"ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واتخلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم".[3]

وكتب الفقه تذكر أنّ الأمر إذا ضاق اتّسع[4]، ولا ضرر ولا ضرار[5]. وتعاليم الإسلام ليس ليس فيها غلوّ، أو تطرّف أو إرهاب، وأيضا ليس فيها تهاون، أو تقصير، أو ذلّ، أو استسلام، وإنّما وسطية بين هذا وذاك تضمن الحريّة والوجود، والحفاظ على حقّ المقاومة والدّفاع ضدّ المعتدين، ومقتضى ذلك أنّه لا يجوز تعطيل أحكام الشريعة ولا الزيادة عليها أو الابتداع فيها، وهذا يعني أنّ الوسطيّة ليست استسلاما لأطماع الأعداء أو الرضا بالتسلط والظلم والهيمنة التي يفعلونها.[6]

ومن تمام نعمة الله على أمّة الإسلام أنّهم - أيضا- وسط في الزمان والمكان والفعالية، أمّا وسطية الزمان، فالمسلمون لم يكونوا مثل الغابرين المتخلفين أو البدائيين، وليسوا في نهاية عمر الزمان حيث تنتهي الحضارة، وشريعتهم منسجمة مع تطوّر العقل البشري، وتقدّم العلوم والمعارف، وهم الآن في النصف الأول من القرن الخامس عشر الهجري يشهدون قفزة الحضارة المعاصرة إلى القمّة، ويستفيدون من نتاجها، ويتمتعون بخيرها، وإن قصّروا في الإسهام فيها بشكل فاعل بسبب تكتّل القوى المختلفة ضدّهم، وإضعافهم وإبقائهم في درجة كبيرة من التخلّف.[7]

وأمّا وسطيّة المكان، فمكّة المكرّمة وفيها البيت الحرام والكعبة المشرّفة التي هي قبلة المسلمين في أنحاء الدنيا هي منتصف الكرة الأرضية، والعالم موزّع من حولهم في الجهات

---

1) البقرة: 184.

2) الحجّ: 76.

3) أخرجه مسلم في الصحيح (975/2)، كتاب الحج، باب: فرض الحجّ مرّة في العمر، من حديث أبي هريرة.

4) الصاوي/ حاشية الصاوي على الشرح الصغير، (313/5).

5) أخرجه مالك في الموطأ (120/1)، باب: القضاء في المرفق.

6) الزحيلي/ وهبة، موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر، (466/6).

7) المصدر السابق، (466/6).

الأربع، والشرق الأوسط الذي يعيش فيه أعداد كبيرة من المسلمين محطّ أنظار العالم، لأهميّة موقعه، وكثرة مزاياه، ففيه الثروات النفطية الهائلة، ومناخه معتدل طول العام.[1]

أمّا وسطية الفعالية، فإنّ الفكر الإسلامي المتجدد المعطاء، والقابل للنماء السريع يختار الوسطية، ويجعلها منهجا له يواكب بها التطوّر الذي تشهده البشريّة.

من خلال استقراء النصوص تكون الوسطية ظاهرة واضحة المعالم في كلّ نواحي الحياة، نادى بها الإسلام، ومن مقتضياتها إقرار الحريّة للناس في اختيار ما يريدون، ثمّ يكون الحساب على ما اختاروا، فإن أساءوا الاختيار عوقبوا، وإن أحسنوا الاختيار كوفئوا بالجزاء الحسن لاتضاح الأمور وانكشاف زيف الباطل، قال تعالى:{وقل الحقّ من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}.[2]

ومن مقتضياتها الاعتراف بالآخرين وبالتعدديّة، فكل ما يعارض هذا التوجّه يؤدي إلى الإخلال بالثقة، ويزرع التهمة وسوء الظنّ بالآخرين، فظاهرة الاختلاف وضع قائم، وعلى الرغم من وجوده فلا بدّ من التعاون والتآزر في عالم الدنيا، مع مواصلة الحوار الهادئ القائم على الاحترام المتبادل بين الأطراف ليحقق آثارا ونتائج طيّبة، لأنّ سماحة الدين تغرس في النفس الراحة والطمأنينة بعد أداء الواجب في التبليغ والبيان.[3]

ومن مقتضياتها النظر إلى الإنسان على أنّه مكوّن من مادة وروح، ولكلّ حاجات ومطالب، فجمع الإسلام بين الماديات والروحانيات، بين الدنيا والآخرة لتحقيق التوازن والاعتدال والوسطية دون ميل لأحد الجانبين على حساب الآخر، فلا معاداة للفطرة ولا كبت ولا قسر، ومثاله إباحة الزواج، وتحريم الرهبنة، والإذن بتناول الطيبات، والتزيّن المباح في الحياة، قال تعالى:{يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين❖ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون}.[4]

---

1) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

2) الكهف: 29.

3) الزحيلي/ وهبة، موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر، (466/6).

4) الأعراف: 31- 32.

قائمة المصـــــــــــادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الأصبحي. مالك بن أنس/ الموطأ، دار صادر، (د- ت).
3. الأصبهاني. أخبار أصبهان، دار التراث، (د- ت).
4. ابن الحجاج. مسلم القشيري، صحيح مسلم، بيروت- دار الكتب العلمية، 1995م.
5. ابن عبد ربّه. أحمد بن محمد، العقد الفريد، ط 2، بيروت- دار التراث العربي.
6. الديلمي/ مسند الفردوس، القاهرة، دار الريّان للتراث، 1987م.
7. الزحيلي/ وهبة، موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر، ط 2، دمشق- دار المكتبي، 2008م.
8. الصاوي/ حاشية الصاوي على الشرح الصغير، دار المعارف، (د- ت).
9. النسفي/ عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل، بيروت- دار الكتاب العربي، (د- ت).